العرب
الأحد 2021/06/13
السنة 44 العدد 12088

العمل مهمة سيزيف السعيد أو لعنة وإكراه

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

هل العمل بما فيه من كدّ وجدّ في شتى المجالات ضروري لكسب الرزق وتأمين الحياة، أم هو مضيعة للوقت، ووسيلة لإهدار طاقة البشر، وفرضٌ يلهي الفرد عن ممارسة حياته كما يهوى؟ أم أنه برغم مشقته طريق الفرد لتحقيق ذاته وإنسانيته؟

كم مرة تمنينا لو تكون أيام السنة كلها عطلا، نصحو متى نشاء، ونتمتع بأوقاتنا كما نهوى، ولا نُرغَم على القيام في مواعيد محددة للذهاب إلى عمل روتيني يبعث في النفس الملل، أو شاقّ نعود إثره مجهَدين في آخر النّهار، فنظل نعدّ الأيام والشهور والسنين التي تفصلنا عن التقاعد وكأنه خلاص من محنة سيزيفية، ذلك أن العمل يتبدى لنا مثل قسْرٍ اجتماعي شاقّ ومنفّر، نمارسه اضطرارا لكسب رزقنا وتأمين قوت عيالنا، فنُكرَه على الخضوع لقواعد وشروط نأباها في الغالب، لكونها ليست من وضعنا، ولكن لا حيلة لنا في التنصّل منها.

هناك من يرى العمل مفيدا ومنتجا بفضله يضمن الإنسان حياته وهناك من يراه شقاء ومن المهازل

ذلك أن الإنسان شأن كل كائن حيّ مضطر إلى تأمين بقائه في طبيعة معادية أو لامبالية في أحسن الحالات، مرغم على توفير عدد من حاجاته الحيوية التي يواجهه الموت من دونها، ولكنه بخلاف الكائنات الأخرى عارٍ مما يؤهله للبقاء بشكل فطري. فالطّبيعة كما بين أفلاطون في بروتاغوراس زوّدت الحيوانات بغرائز مؤكّدة توجّه سلوكها دون خطأ ممكن، وبأعضاء تستعملها كأدوات فطرية كالمخالب والمناقير والكلاّبات والأنياب، أما الإنسان فليس له من ميزة طبيعية غير أصابعه.

كان الإنسان فريسة سهلة منزوعة السلاح، وصيادا بطيئا وغير ماهر تمامًا، وكان يمكن أن يزول بيولوجيا لو لم يكن قادرا على صنع أدوات تحول بينه وبين العالم، وتحويل ما يحيط به بفضل نشاطه التقني، وإخضاع الطبيعة لحاجياته، لأنه الكائن الوحيد الذي لا يتأقلم مع بيئته، بل يؤقلم البيئة لضرورات بقائه، والعمل هو محرك ذلك التأقلم وحامله وناقله. ومن ثَمّ يبدو العمل ضرورة حيوية لإنتاج ما لا تنتجه الطبيعة وحدها، وإلا فإن بقاءه مهدّد بالزوال، ونوعه مهدّد بالانقراض.

من هذه الزاوية يبدو العمل مفيدا ومنتجا، بفضله يضمن الإنسان حياته، ويقاوم الملل والضجر، ويملأ وقته بما ينفعه وينفع غيره، حتى أن بعض الفلاسفة يعتبرونه ضروريا للفرد والمجتمع. في كتاب "وضع الإنسان العصري" ترى حنّا أرندت في العمل نشاطا ضروريا لحفظ الحياة البيولوجية، لكون الحياة في نظرها مسيرة استهلاك، أي تدمير، والحفاظ عليها يقتضي مداومة العمل الذي ينتج ما نستهلكه.

فكيف إذن ننظر إليه كعامل إهدار لطاقة الإنسان ووقته وحياته؟

لئن صورت التوراة العمل كلعنة حلت على آدم وحواء نتيجة أكلهما ثمرة شجرة المعرفة، ما أرغم حواء على العمل وتحمّل آلام الوضع، وأجبر آدم على الكد كي يضمن قوته بعرق جبينه، فإن ماركس في "رأس المال" يتوقف عند النشاط مدفوع المقابل، ويرى أنه يضيع على البروليتاري وقته، لأنه يحرمه من حق استعمال قوّته الحيوية لصالحه، تلك القوة العاملة التي يتملكها الرأسمالي ويشتريها بأثمان بخسة كي يستغلها لمصلحته الخاصة وينمي ربحه على حساب غيره، لاسيما إذا كان الفرد عاملا لا يملك ما يبيع غير قوة العمل.

فالأجير في نظر ماركس، عاملا كان أم موظفا أم كادرا، مضطر أن يتحول إلى بضاعة، وبذلك يصبح وقت العمل زمن استلاب، لأن الأجير يفقد قوة عمله وحقه في التصرف فيها حسب مشيئته، وبالتالي، فإن الوقت الذي يقضيه في عمله هو وقت ضائع ما دام ليس على ملكه. ثمّ إن الوقت الذي يقضيه في العمل يُفقده قوّته تدريجيًا حدّ الاستنزاف، فإذا هو يتوهّم أنّه يعمل ليعيش، والحال أنه يدمّر بالعمل حياته، وينهك جسده ويقصّر عمره.

ولكن إذا كان العمل مضيعة للوقت، وإهدارا لطاقة الإنسان، وأحد أسباب التعجيل بنهايته، فهل العطالة والبطالة والكسل والخمول هي التي يملأ بها الإنسان أوقاته؟

إن العمل لا ينحصر في شغل يتقاضى عنه الإنسان راتبا، بل يتعداه إلى صنع ما يولّد سروره وارتياحه. وإن كان شاقا، فمردّ ذلك إلى الجهد الذي يقتضيه أداء مهمة أو تحقيق هدف أو صنع أداة أو آلة، تكون مبعث سعادته إذا أنجزها على أكمل وجه. وبذلك لا يكون الوقت الذي قضاه في العمل وقتا ضائعا، ما دام يتيح له تحقيق ما يرضيه وينفعه، وينفع الناس من حوله.

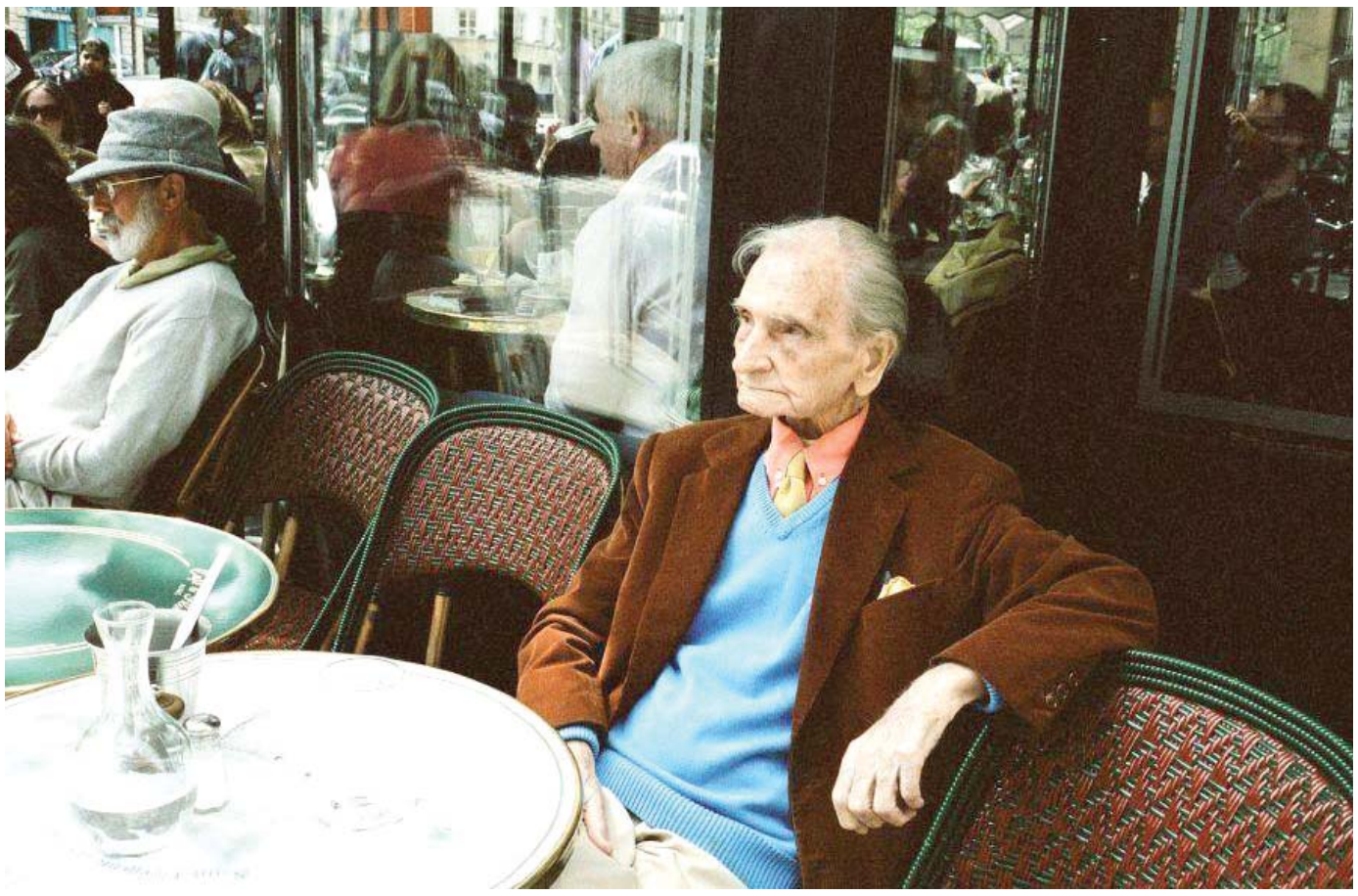

ألبير قصيري كان كره العمل فلسفته في حياته وأدبه

وهو ما عناه كانْت في "تأمّلات في التربية" حيث نفى أن يكون عمل آدم وحواء لعنة، بل هو نعمة في رأيه، فبخروجهما من الجنة باشرا العمل وبَذْلَ الجهد كي يُقيما أودَهما ثمّ يَقوما بأود عائلتهما، ويحققا في النهاية إنسانيتنا، ولو بقيا فيها لما تعلّما العمل وقيمته، فالعمل هو الذي يعطي اللهو والترفيه والمتع معنى، لأنه لا يشغل أوقاتنا فقط، بل بفضله ننتج الفنون والعلوم والتقنيات وما إلى ذلك من أنشطة تشكل الثقافة التي نحقق داخلها طبيعتنا ككائنات عاقلة، وبالتالي إنسانيتنا. وفي رأيه أن العمل كجهد منتج هو وحده ما يجعل الوقت مفيدًا، وأن الركون إلى الكسل والراحة هو الذي يمثل مضيعة للوقت.

في كتاب "مديح المُكربن" مثلا، يؤكد الفيلسوف الميكانيكي الأميركي ماتيو كراوفورد أن عمل مصلح الدرجات النارية ينتج آثارا مادية فورية، كإعادة تشغيل آلة عاطلة، ومن ثمّ فإن العمل في اعتقاده أبعد ما يكون عن إهدار الوقت والصحة والعمر، بل هو مصدر راحة وسرور. كذلك سيمون دو بوفوار في "الجنس الآخر"، حين تحدثت عن ربات البيوت اللاتي يقاومن السلبي، أي القذارة والجوع، دون مقابل أو اعتراف، بدعوى أن عملهن غير منتج، والحال أنه أساس البيت، من دونه لا تستقيم الحياة الأسرية.

أي أن المسألة نسبية يمكن أن يُنظر إليها من زاويتين مختلفتين، بين كاره للعمل لكونه يلزمه بما لا يحبّ، ويحرمه من ممارسة أنشطة ثقافية واجتماعية وسياسية، والتمتع بفسح أكبر للهو والمرح، يعتقد اعتقادا راسخا أن العمل لعنة اللعنات، ويردد قول القائل "لم نسمع برجل يعمل بكدّ من الصباح إلى المساء وصار غنيّا"، أو يسخر من العمل شأن المصري ألبير قصيري، الذي كان كره العمل فلسفته في حياته وأدبه، وكان يقول "من المهازل أن يقضي الإنسان وقته وهو يكدّ ويجدّ ويحرم نفسه وأسرته ليوفر ثمن سيّارة، يذهب بها إلى العمل، أي إلى موطن شقائه وعبوديته".

وهناك من يجد في العمل وسيلة للترقي الاجتماعي وتحقيق غايات لخدمة الصالح العام، ولو كان ذلك بجهد ومشقة، وسيزيف في هذه الحالة، يمكن أن يُنظر إليه على أنه "لا يدفع الصخرة عبثا، وإنما لأنه يجد في ذلك سعادة الجهد المبذول" على رأي الكاتب الألماني هاينريش بول.

الكتاب الإلكتروني كحساب فيسبوك ليس ملكك

الطيب الحصني
كاتب ومترجم سوري

نسمعُ كلاماً على أن الكتب ستختفي كل يوم، وأن النص الإلكتروني قد فعل بها كما فعل ربُّنا بأصحاب الفيل، حتى بات من المعقول وضع تحذير إلزامي على الكتب مثل تحذيرات السجائر "إن الكتاب وسيط منتهي الصلاحية، استخدامك لهذا المنتج يمنح الكتاب والناشرين أملاً زائفاً، الكاتب غير مسؤول عن سوء التخزين، مضرّ بالحامل وجنينها".

والمدافعون يردّون بشراسة حالمة دوماً: لن يندثر الكتاب لأن الناس لن تقبل الإلكترونيات والآيباد بديلاً عن ملمس الورق الحريري ورائحة الحبر الفردوسية. ولكن في الحقيقة، لو أن الكتاب سيصمد بسبب ملمسه ورائحته أليس الأشرف له أن يندثر؟ ملمس ورائحة؟ أيّ آخرة داعرة هذه؟

ولكن على الرغم من أن سوق الكتب الورقية تتراجع عالمياً، إلا أن مفهوم الكتاب الورقي يكتسب معانيَ متجددة في عقل جيل جديد، فهنالك إدراك فطري بأن أفكار الفرد حول واقعه وبيئته تستحق الصون والمشاركة، وأن المنصات الإلكترونية (الشبكات الاجتماعية على الإنترنت وغيرها) ليست مكاناً ملائماً لنشرها. ويتضمن هذا الإدراك، أيضاً، حقيقة وجود علاقة مع النص تتعلق بالتملّك: إننا عندما نمسك كتاباً بين يدينا نشعر بأننا نملكه، وأنه جزء من حريتنا وسلطتنا على حياتنا، وهو شيء مختلف عن الكتاب الإلكتروني، الذي هو ليس أكثر من تفويض مؤقت لقراءة النص على الشاشة، وهو تفويض قابل لأن يُسحب من بين يدي القارئ تبعاً لسياسات الناشر الإلكتروني والمنصة الفيزيائية التي يعمل عليها.

حصلَ مثال مضحك مبك على ذلك في عام 2009 عندما قامت شركة "أمازون" بحذف النسخ الإلكترونية من كتاب "1984" لجورج أورويل من على أجهزة المستخدمين، دون أيّ إذن أو تبليغ مسُبق، وبررت الشركة ذلك بأن الذي قام ببيع النسخ الإلكترونية لا يملك حقوق النشر. وإذا ما وضعنا جانباً المفارقة المرّة (حيث الرواية تتحدث عن قمع الحكومات للفكر) فتخيل أن يحصل مثل ذلك في العالم الحقيقي! تخيل أن تشتري كتاباً وتضعه على رف مكتبتك لتستيقظ في الصباح وتجده قد اختفى وحلّ مكانه ورقة مكتوب عليها "تم استرداد هذا الكتاب بسبب تجاوزات في حقوق النشر".

هنالك بصيص من الأمل للكتاب الإلكتروني في هذا المجال، فقد يأتي يومٌ، بعد صراع مرير مع الاحتكارات، تتوفرُ لنا فيه التقانات مفتوحة المصدر ومفتوحة البنية الصلبة (open hardware)، وهذه قادرة على أن تجعل تعاملنا مع الكتاب الإلكتروني، وقدرتنا على تخزينه والحفاظ عليه، تحت سيطرة القارئ تماماً، وتحرّرنا من تلاعب شركات التقنية بعلاقتنا مع الكتاب الإلكتروني، ولكن هذا اليوم ما زال بعيداً.

مسألة الرقابة والملكية هذه يدركها القرّاء، حتى لو كان ذلك بشكل فطري، فالكتاب الإلكتروني – سواءً اشتريناه بشكل قانوني أو عن طريق القرصنة – لا ملكية لنا عليه إلا كما نملك حساب الفيسبوك (القابل للإغلاق بفعل بعض المشتكين) وهو مثل حقّنا في الجلوس على أبواب الجوامع قابل للتسوير.

وينعكس هذا الإدراك في عدة أمور، منها أن الكتاب الورقي لا يزال مفضلاً في الغرب لدى القرّاء في عدد كبير من الجوانب، بدءاً بالكتب الجامعية وليس انتهاءً بالأدب، ولهذا أسباب أخرى طبعاً، لكن ما أرمي إليه هو القول بأن العامل النفسي الذي يدفع القارئ إلى اقتناء كتاب بدلاً من تصفحه على شاشة هو أكثر من مسألة "رائحة وملمس".

بل يبدو أنه كلما استشرست السوق في تسليع الكتابة عن طريق الحوسبة وممارسات دور النشر (رفض المخطوطات، وتعديل بعضها الآخر جذرياً عن طريق التحرير)، كلما توجه الناس بشكل فطري نحو وسائل تضمن لهم حريتهم وفرديتهم.

خذ مثلاً مسألة النشر الذاتي (أن يدفع الكاتب للناشر لطبع كتابه). كان هذا، ولا يزال إلى حدّ ما، يعتبر مجرد إهدار ورق لمداعبة غرور الكاتب، لأن الناشر بعد أن يقبض من الكاتب ثمن الطباعة لا يعود عنده همّة على تسويقه أو بيعه، ولكن الوضع في الغرب يتغير،

الكتاب لن يختفي أبدا (لوحة للفنان علي رضا درويش)

فاليوم يتوجه بعض الموهوبين إلى النشر عن طريق "الطبع عند الطلب"، مما يسمح لهم بتوزيع نسخ ورقية من كتابهم تُطبع بالتزامن مع طلب كل مستهلك فرد، وذلك برأس مال زهيد، وفرص جيدة للانتشار والربح الحقيقي. فتَح هذا الأسلوب مجالاً أمام الحالمين بطباعة مؤلفات ترفضها دور النشر؛ كتب من نوع أدب الرحلات النفسي، والشعر والروايات التي لا ترى فيها دور النشر قيمة استهلاكية.

أحد الأمثلة الصارخة على ذلك هو رواية "Still Alice" التي تتحدث عن تجربة الإصابة بمرض الزهايمر. حاولت الكاتبة تقديمها إلى عدة دور نشر دون جدوى، فقد كان الرفض يأتي بحجة أن "الناس لا ترغب في القراءة عن مصاب بالزهايمر"، وفي أغلب الأحيان أتاها الرد من دون أيّ تبرير، وبعد مرور سنة قررت المؤلفة في 2007 أن تدخل مغامرة النشر الذاتي بتكلفة قدرها 450 دولارا.

وعلى الرغم من تحذير الكثير لها من أن النشر الذاتي "يقتل مسيرة الكاتب قبل أن تبدأ" فقد حاز الكتاب على إعجاب بعض النقاد، ومن ثم قامت دار نشر بشراء حقوقه وطباعته، ليحقق من بعدها نجاحاً مادياً كبيراً ويصل في النهاية إلى قائمة أفضل الكتب مبيعاً في النيويورك تايمز، ومن ثم يُعاد إنتاجه على شكل فيلم حصدت فيه جوليان مور أوسكار أفضل ممثلة في 2015. وكل هذا حصل بعد أن قررت دور النشر التقليدية بذكاء منقطع النظير أنه كتاب "لن يشتريه أحد".

وعلى الرغم من انعدام وسائل النشر هذه في العالم العربي وقلة الإحصاءات حول الكتب الإلكترونية (والاثنتان مردهما الأول إلى قمع الأنظمة التي لا ترغب في سهولة انتشار الفكر)، فلعلنا جميعاً نعرف عن تجربة أن أكثر القراء العرب يرغبون باقتناء الكتاب الورقي، وأن الكتاب الإلكتروني شيء يضطرون إليه ولا يحبذونه إلا لأسباب مادية.

الكتاب باقٍ كما بقي من قبل في وجه كل ما مرّ به، ليس بسبب ملمسه المثير، بل لأنه الوسيط الأكثر فردية وتحرراً في تاريخ الإنسان. فالكتابة تتميز بأن الفرد يستطيع عبرها أن يُنتِجَ من بيته (وربّما الأهم من ذلك أن يتملّك في بيته) عملاً فنياً عظيماً، بصيغة طويلة البقاء، سهلة الانتشار، وفي نفس الوقت قابلة للنسخ ومن ثم المشاركة في المجتمع دون الخضوع المستمر لنزوات أباطرة الاحتكار ومحاولاتهم الشرسة لقولبة الطريقة التي نتلقى به الوسائط. سوف تتغير سوق الكتب، تصعد وتهبط، تنحدر وترتقي، تنهار مؤسساتها وتظهر أخرى جديدة، لكنها لن تذوي.

الكتاب الورقي باقٍ كما بقي من قبل في وجه كل ما مرّ به لأنه الوسيط الأكثر فردية وتحررا

الكتب بصيغتها الجامعة أوراق وعليها حبر، باقية لتكون عتبات ليلية ثابتة، تواجه عصراً تنتشل قذائفه أجسادَ أصدقائنا في مدن يبتلعها الظلام، لتختفي أسماؤهم شيئاً فشيئاً من على قوائم إلكترونية مُنارة على نحو أفضل من اللازم.

هي الأحجار التي أرساها الله في حواشي الدنيا مطلة على بيته في السماء ليرتاح عليها المتعبون، وهذه لا يقدر إنسانٌ أن يضع حولها سوراً.

هذا المقال وص11 ينشران كاملين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية